**ساحة الشهداء في بيروت المحروسة**

**ساحة تختصر الدنيا**

**زهير دبس**

اضطلعت الساحات على مر التاريخ بوظائف وأدوار متعددة، من بينها أنها كانت قديماً المكان التقليدي الذي تتم فيه المبادلات التجارية التي هي أساس نشوء المدن. كان ذلك قبل غزو الوسائل الحديثة عالمنا هذا، وقد ارتبطت تسمية الساحات في عدد كبير من الدول، بأحداث لها رمزيتها الخاصة، والساحات في بيروت لا تشذ عن هذه القاعدة، وأشهرها ساحة الشهداء، التي حملت في حقبات زمنية سابقة عدد من التسميات معظمها ارتبط بالحروب، من بينها "المدفع"، و"الشهداء" . هذا الأخير، اكتسبته الساحة بعد أن أصدر جمال باشا في العام ١٩١٦ أوامر بإعدام ١٤ لبنانياً وسورياً بتهمة العداء للسلطنة العثمانية. إلا أن اللبنانيون درجوا على تسمية الساحة بالبرج، وهي التسمية التي حملتها قديماً نتيجة وجود عدد من الأبراج فيها، كبرج الكشاف وغيره .

**الساحة ـ المدينة**

شكلت ساحة الشهداء، فضاء عمومياً ليس لسكان بيروت فحسب، بل لكل من قصدها من لبنان ومن مختلف أنحاء العالم العربي، ففي الزمن الذي تمددت فيه المدينة إلى خارجها وتولّد عنها أحياء وشوارع ومناطق اكتظت بالوافدين من الأرياف، كانت الساحة تؤكد مركزيتها ووظائفها وخدماتها التي لم تكن توفرها أي بقعة أخرى في بيروت آنذاك. وفي ستينيات القرن العشرين المنصرم، أخذت الساحة وظائف إضافية، حتّمها النمو المتسارع لمدينة بيروت التي لقبت آنذاك بسويسرا الشرق، وقد احتشدت على جنباتها المؤسسات التجارية والشركات والنوادي الثقافية والملاهي والحانات الترفيهية، ودور السينما والمسارح والمطاعم والمقاهي والمصارف والمكتبات ودور العبادة. فكانت الساحة مثابة المسرح الذي انعكست فيه تمثلات ومظاهر تلك التسمية التي كانت تجسدها جموع الناس الذين كانوا ينخرطون في مرافقها ويشكلون فسيفساء لمشهدية من الأزياء والجنسيات واللهجات والسيارات والترامواي وأصوات الباعة المتجولين والأغاني المنبعثة من كل حدب وصوب.

***ساحة الشهداء عام 1948***

**فضاء تواصلي عمومي وعابر**

ما ورد آنفاً، يؤكد أنّ الساحة لم تكن يوماً مساحة تقاس بالأرقام المترية، بقدر ما كانت مجالاً تواصلياً لكل قاصدي المدينة على اختلاف طبقاتهم وجنسياتهم وطوائفهم، يأتون إليها من فرن الشباك والأشرفية ورأس النبع والبسطا والمصيطبة وزقاق البلاط والقنطاري ورأس بيروت وعين المريسة وجل البحر والمنارة، ثم ينخرطون في عملية تفاعلية تعارفية اقتصادية ثقافية سياسية اجتماعية.

امتدت الوظيفة التواصلية للساحة لتشمل مناطق الشمال والجنوب والبقاع وزحلة والجبل وصولاً الى سورية، بفضل الكاراجات التي كانت متوافرة فيها، وكانت البوسطات والسيارات تنقل العمال الموسميين من أبناء المناطق الريفية والجبلية، الذين كانوا يشغلون وظائف متعددة ومتنوعة في المؤسسات والمعامل والأسواق والمهن التي تحفل بها المدينة.

**ساحة الزمن الجميل**

ما يسقطه المؤرخون من تفاصيل للأماكن والمجالات، تستحضرها الذاكرة التي أكثر ما تترسخ فيها مورفولوجية الأمكنة، تفاصيلها، شكلها، وحتى رائحتها ولونها، كما هي ساحة البرج التي أصابتها تحوّلات كثيرة مع مرور الزمن، إلا أنّ مجرّد ذكر اسمها، لا زال يثير حنين الذين عاشوا زمنها في ستينيات القرن العشرين، فيستعيدون ما رسخ عنها في ذاكرتهم، منها عن زيارتهم لإحدى المكتبات، أو لقاءهم بأحد الاصدقاء في أحد المقاهي، أو حضورهم لإحدى المسرحيات أو الأفلام في إحدى دور السينما، أو زيارتهم لطبيب أو ضريح ديني، ولا يغيب ذكر المصورين الذين كانوا ينتشرون في أنحاء الساحة، كيف لا! وهم الذين كانوا ينتظرون إشارة من المارة ليلتقطوا لهم صور للذكرى لا زال الكثير منهم يحتفظ بها، هناك أيضاً وصف للحلاقين الذين كانوا يحملون عدّتهم المؤلفة من مقص وكرسي ومرآة وشمسية تقي الزبائن من الشمس، وبسطات الكتب المنتشرة على الأرصفة، وبائعي الكعك وغزل البنات الذين كانوا ينادون بأعلى أصواتهم، وغيرها من الذكريات التي لا يتسع المجال هنا لذكرها.

هي أيضاً ساحة نجوم السينما الذين كانوا يأتون إليها لحضور عروض أفلامهم مثل فاتن حمامة، وأنور وجدي وعبد الحليم حافظ، ومحمد عبد الوهاب، وأحمد خليفة الذي اشتهر من خلال شخصية أبو عبد البيروتي .

هي الساحة التي لا تنام، كما هي بيروت في ذلك الزمن، حيث المقاهي والمسارح ودور السينما تزدحم بقاصديها، كل إلى المكان الذي يريده: المسرح الوطني، كابيتول وبيبلوس، وسيتي بالاس، والأوبرا، وكايرو،

أوديون، شهرزاد، كريستال، الريفولي، أمبير، روكسي، دنيا، محلات قيصر عامر، وبعلبكي، وطحان، مطعم جبران، صيدلية الجميل، عصير الديماسي، مقهى القزاز، حلويات البحصلي وعنتبلي، وفلافل فريحة وغيرها.
يختصر صاحب ملهى ومطعم "الباريزيانا" عبد الحميد سلام، بيروت بالساحة، "بيروت هي عبارة عن ساحة البرج"، كما يسميها حسن الجاك صاحب سينما ريكس "كرسي بيروت، يجلس عليها كل متعب، وكل قاصد فن أو ترفيه عن النفس، كانت ملتقى جميع الطبقات"، كما هي في ذاكرة الفنان حسن جوني ساحة "الزمن الجميل"، ومن الصور التي يستعيدها عنها، ما يعود لجمهور العمال من عتالي السل والبائعين المختلفين الذين كانوا يتجمعون خميس كل أسبوع على سطح محاذ لملهى الباريزيانا طمعاً بسماع المطربة أم كلثوم، التي كان يبثها صوت القاهرة. ولم يكن العمال يتناولون طعامهم إلا عندما تبدأ "الست بالغناء".

***ساحة الشهداء عام 1960***

**الساحة مجال ديمقراطي**

عكست ساحة البرج وظيفتها كمجال ديمقراطي مشحون بآراء اللبنانيين السياسية المتعددة سواء منها الرافضة للأحداث أو المؤيدة أو المستنكرة أو المتضامنة التي كانوا يعبرون عنها في التظاهرات التي كانت تنطلق منها. ففيها كانت تقام أعياد الشهداء والاستقلال، وفيها أيضاً توحد اللبنانيون على مختلف طوائفهم وتظاهروا ضد الانتداب الفرنسي مطالبين الافراج عن رئيس الجمهورية بشارة الخوري، وفي هذه الساحة اندلعت ثورة الـ ١٩٥٨ على خلفية حلف ايزنهاور، في عهد كميل شمعون.
مع اندلاع الحرب الأهلية اللبنانية في العام ١٩٧٥ تحولت الساحة إلى خط تماس قسمت المدينة إزاءها إلى شطرين شرقية وغربية، فيما ذهب العنف والدمار بمعظم معالمها.
في تسعينيات القرن العشرين، ومع انطلاق عملية إعادة إعمار الوسط التجاري لبيروت، فقدت الساحة مركزيتها وشهدت تبدلاً في أدوارها، بعد أن نمت في مناطق ومدن أخرى، مرافق تلبي احتياجات مختلف الطبقات على اختلافها. إلا أن الساحة إياها احتفظت برمزيتها كمجال له خصوصيته في ذاكرة اللبنانيين إذ كانت شاهدة على بطولات شهدائهم، كما على اجتماعهم، واحتجاجاتهم، وتضامنهم ثم انقساماتهم التي لم تدم طويلاً، ثم عادت

لتشهد على اجتماعهم مرة أخرى، كان ذلك في العام ١٩٩٤ حين التفوا آلافاً مؤلفة في أول حفلة أقامتها المطربة فيروز بعد انتهاء الحرب في الساحة نفسها ورددوا معها: "كتار قلال منكمل بللي بقيوا".
هي الساحة التي يريد الرسام حسن جوني أن يفيها حقها من الحضور الساطع في عالم المدينة بيروت في ذلك الزمن الغابر، فيصفها بأنها كانت تشكل عالماً بذاته، و"تختصر الدنيا".

المراجع:
- رباب دبس، أطروحة دكتوراه تحت عنوان "صور المدينة في السير الذاتية والشفهية" مدينة بيروت نموذجاً. (2023) (غير منشورة)
- محمد صالح أبو الحمايل "تاريخ بيروت الحديث: التراث العادات والتقاليد الاسواق السينما المطابع والأحياء" (2019).
- رياض جركس "بيروت في البال" (1996).